الفَوْزُ العَظِيم

٤٧ ـ قَالَ رَبُّ العِزَّةِ سُبْحانَهُ في الحديثِ القُدْسِيّ:

«أيما عَبْد مِنْ عِبَادِي خرجَ مُجاهِداً في سَبِيلي، ابْتِغاءَ مَرْضَاتِي، ضَمنْتُ له أَنْ أُرجِعَهُ بما أصابَ مِنْ أَجْر وغنيمةٍ، وإنْ قَبَضْتُه أنْ أغفر له، وأرْحمه، وأُدْخِلَه الجنَّة»(١).

يقول الحق سبحانه:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

إن اللَّه ـ عز وجل ـ يقول للذين آمنوا: اعلموا أنكم مُقْبِلون على مشقَّاتٍ وعلى متاعب، وعلى أنْ تتركوا أموالكم، وعلى أنْ تتركوا لذّتكم وتمتعكم، لذلك نجد كبار السَّاسة الذين برعوا في السياسة ونجحوا في قيادة مجتمعاتهم كانوا لا يحبون لشعوبهم أن تخوض المعارك إلا مضطرين، فإذا ما اضطروا فَهُم يُوضِّحون لجندهم أنهم يدرأون بالقتال ما هو أكثر شراً من القتال، ومعنى ذلك أنهم يُعبِّئون النفس الإنسانية حتى تواجه الموقف بجِماع قُوَاها، وبجميع ملَكاتها، وكُل إرادتها.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ...﴾ [البقرة: ٢١٦]، إنه سبحانه يقول لنا: أعلم أن القتال كُرْه لكم، ولكن أردتُ أن أشيع فيكم قضية، هذه القضية هي ألَّا تحكموا في القضايا الكبيرة في حدود عِلْمكم؛ لأن علمكم دائماً ناقصٌ، بل خُذوا القضايا من خلال علمي أنا؛ لأنني قد أُشرِّع مكروهاً، ولكن يأتي منه الخير، وقد ترونَ حُبّاً في شيء، ويأتي منه الشر.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١١٧)، والنسائي في سننه (٦/ ١٨) من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما.

وفي ذِكْر أمر الكُرْه إنصافٌ لهم، فصحيح أن القتال أمر صعب ويكرهه الإنسان، لكن الحق قد كتبه، والمسلم إذا استحضر الجزاء عليه فهو يحتقر ما يتركه؛ لأنه قليل بالنسبة لعطاء اللَّه.

والحق سبحانه يقول لنبيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ . . .﴾ [الأنفال: ٦٥].

وساعةَ تسمع أن فلاناً يُحرِّض فلاناً، فهذا يعني أنه يحثُّه، ويثير حماسه، ويُغريه على أن يفعل، أي: حُثّهم وحُضَّهم وحَمِّسهم.

أي: أن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ يطلب من رسوله ﷺ تحريض المؤمنين على الجهاد، وكأنه يقول له: ادْع قومك إلى أن يبعدوا الدنو من الهلاك عن أنفسهم؛ لأنهم إنْ لم يجاهدوا تغلب عليهم أهل الكفر، فأهل الكفر يعيشون في الأرض بمنهج السيطرة والغَلَبة والجبروت.

وحين يجاهدهم المؤمنون إنما ليوقفوهم عند حدهم؛ ولذلك قال الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

فكأنهم إنْ لم يحاربوا أهل الكفر فسوف يحيط بهم الهلاك في الدنيا وفي الآخرة، واللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ يريد لهم الحياة الآمنة الكريمة في الدنيا، والجنة في الآخرة.

والقتال لا بُدَّ أن يكون في سبيل اللَّه، قال تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

فعندما نتأمل قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

فإننا نجد أن الحق سبحانه يؤكد على كلمة «في سبيل اللَّه» لأنه يريد أن يضع حَدّاً لجبروت البشر، ولا بُدَّ أن تكون نية القتال في سبيل اللَّه، لا أنْ يكون القتال بنيّة الاستعلاء والجبروت والطغيان.

فلا قتالَ من أجل الجاه أو المال أو لضمان سوق اقتصادي، وإنما القتال لإعلاء كلمة اللَّه، ونُصْرة دين اللَّه، هذا هو غرض القتال في الإسلام.

والحق سبحانه يقول في آية أخرى:

﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٧٤].

فالمؤمن هنا يعطي الدنيا ليأخذ الآخرة التي تتمثل في الجنة والجزاء ومنزلة الشهداء.

فالقتال إنما جاء حتى تُسيطر مناهج السماء، وسبحانه حينما يقول: ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ . . . ﴾ [النساء: ٧٤]، فهذا يدلُّنا على أن هناك قتالاً في غير سبيل اللَّه، كأنْ يقاتل الرجل حميّة، أو ليُعلم مكانه من الشجاعة، فقتال الرجل دائماً حَسْب نيته.

ولذلك، تساءل بعض الناس: مَنِ الشهيد؟ قال العلماء: هو من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فيكون شهيداً. إذن: فالقتال يكون مرة في سبيل اللَّه، ومرة يكون في سبيل النفس، ومرة يكون في سبيل الشيطان.

فكلمة «الجهاد في سبيل اللَّه» تُخصِّص لوناً من الجهاد، فالإنسان قد يجاهد حَميّةً أو دفاعاً عن جنسيته، أو أي انتماء آخر، كل هذه الانتماءات في عُرْف الدين لا قيمةَ لها، إلا إذا نبعتْ من الانتماء إلى منهج اللَّه، لتكون كلمة اللَّه هي العليا.

وعندما سُئِل رسول اللَّه ﷺ عن أفضل القتال، فيما جاء عن أبي موسى رضي اللَّه عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكْر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، فمَنْ في سبيل اللَّه؟

قال: «**مَنْ قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه**»(١).

ولذلك يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣].

فأنت لم تذهب للقتال من أجل الغنائم، أو لتكسب مكانة في مجتمعك كمقاتل، بل أنت تقاتل حين يكون القتال مطلوباً، وتسلك بالخُلُق الإيماني

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨١٠)، وأحمد في مسنده (٤/ ٣٩٢، ٣٩٧، ٤٠٢) ومسلم في صحيحه (١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي اللَّه عنه.

اللائق في إطار أنك من المتقين للّه، وتحارب لتكون كلمة اللّه هي العليا.

وهنا تكون معية اللّه لك، فالحق سبحانه هو خالق النفس البشرية، وهو العليم بها حين تكون أمام قوة لم تحسب حسابها، وكيف تعاني النفس من كَرْب عظيم، خصوصاً إذا كان ذلك في ميدان القتال؟

ولذلك طلب من المؤمنين أنْ يتذكّروا دائماً أنهم ليسوا وحدهم في المعركة، وأنه سبحانه وتعالى معهم، فليذكروا هذا كثيراً ليوالي نصرهم على عدوهم، لأنهم إذا ما داوموا على ذِكْر اللّه تعالى فسيقوي هذا الذكْر إيمانهم، ويجعل في قلوبهم الشجاعة اللازمة لتحقيق النصر.

وذِكْر الحق سبحانه كلمة (كثيراً) هنا يعني أن الإنسان قد يذكر اللّه عند اليأسِ فقط، فإنْ جاءت الحياة بعد ذلك بالرخاء فقد ينسى ذِكْر اللّه.

لذلك يؤكد ـ سبحانه وتعالى ـ هنا أن يكون ذِكْر اللّه كثيراً، ليوالي اللّه نَصْر المؤمن على عدوه، ومثال ذلك: أننا نجده ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يستحضر الخَلْق المؤمنين للصلاة في يوم الجمعة يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ٩، ١٠].

يطلب الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك من المؤمنين، وهو العليم بأنهم يداومون الولاء له سبحانه كل يوم خمس مرات، ثم بعد صلاة الجمعة يطالبهم بالانتشار في الأرض والابتغاء من فضل اللّه تعالى، ويُنبهنا أن نداوم على ذِكْره، فكأنه يقول: إياكم أنْ تلهيكم أعمالكم ومصالحكم الدنيوية عن ذِكْر اللّه، أو تعتقدوا أن ذِكْر اللّه في المسجد أو وقت الصلاة فقط، بل داوموا على ذِكْر اللّه في كل أحداث الحياة، فإنْ فعلتم ذلك وذكرتم اللّه كثيراً، فستكونون من المفلحين.

وذِكْر اللّه كثيراً معناه أنك تشعر في كل لحظة أن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ معك، فتخشاه وتحمده وتستعين به، وهكذا تكون الصِّلَةُ دائمة بينك وبين اللّه عَزَّ وجَلَّ في كل وقت.

والحق سبحانه يعقد صفقة مع المؤمنين المجاهدين، فيقول تعالى:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

تلك هي الصفقة التي يعقدها الحق سبحانه مع المؤمنين، وهو سبحانه يريد أن يعطينا ما نتعرَّف به على الصفقات المربحة، فكلٌّ مِنّا في حياته يحب أن يعقد صفقة مربحة بأن يعطي شيئاً ويأخذ شيئاً أكبر منه.

ولذلك يقول في آية أخرى:

﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر: ٢٩].

هنا أيضاً تجارة، وأنت حين تريد أن تعقد صفقة عليك أنْ تقارن الشيء الذي تعطيه بالشيء الذي تأخذه، ثم افرق بينهما، ما الذي يجب أنْ يضحي في سبيل الآخر؟

والحق سبحانه وتعالى قد وصف الحياة بأنها «الدنيا» ولا يوجد وَصْف أدنى من هذا، فأوضح المسألة: إنك ستعطي الدنيا وتأخذ الآخرة، فإذا كان الذي تأخذه فوق الذي تعطيه فالصفقة ـ إذن ـ رابحة، فالدنيا مهما طالتْ فإلى نهاية، ولا تقُلْ كم عمر الدنيا، لأنه لا يعنيك أن يكون عمر الدنيا ألفَ قرن، وإنما عمر الدنيا بالنسبة لكل فرد: هو مقدار حياته فيها، وإلا فإنْ دامت لغيري فما نفعي أنا؟

إذن: فقيمة الدنيا هي مقدار عمرك فيها، ومقدار عمرك فيها مظنون، فعمر الدنيا بالنسبة لكل إنسان هو مقدار حياته فيها، فلا تقارنها بوجودها معك أنت، وهَبْ أنه متيقن، ولكنه محدود بسبعين عاماً على سبيل المثال، ستجد أن تنعُّمك خلالها مهما كَبُر وعَظُم فهو محدود.

فإنْ قارنتَ المحدود بغير المحدود ستجد الغَلَبة للآخرة؛ لأنها مُتيقنة والنعيم فيها على قَدْر سعة فَضْل اللَّه وقدرته، فالأحسن لنا أن نبيع الدنيا ونأخذ الآخرة، فتكون هذه هي الصفقة الرابحة التي لا تبور.

ولماذا يُدخِل اللَّه العبدَ في عملية البيع هذه؟ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قبل أنْ يعرض عليك الصفقة لتدخل في عملية البيع التي تجهدك إنْ لم تقتل

أو تُقتل في سبيل اللَّه، لا بُدَّ أنْ يوضح لك كيفية الغاية التي تأخذ بها الفوز في الآخرة، ولن نأخذ هذا الفوز بالكلام فقط.

ولكن انظر إلى المنهج الذي ستقاتل من أجله، إنه تأسيس المجتمع الذي يؤدي كل امرئ فيه الأمانة، وهذا الأمر لا يحزن منه إلا مَنْ يريد أن يأخذ عرق الناس ويبني جسمه من كَدِّهم وتعبهم، وهات مجتمعاً لا يؤمن باللَّه وقُلْ: يأيها الناس نريد أن يؤدي كل واحد منكم الأمانة التي عنده، نريد أن نحكم بالعدل، فسيفرح أهل هذا المجتمع.

إذن: فلكي نحمي المجتمع لا بُدَّ أن نؤدي الأمانة، وأن نقيم العدالة، ومن قبل ذلك أمرنا أن نعبد إلهاً واحداً فلا نتشتت، ثم أوصانا بالوالدين والأقربين، واليتامى والمساكين.

قُلْ لي باللَّه عليك، لو لم يكن هذا ديناً من السماء، وكان تشريعاً من أهل الأرض، أهناك أعدَلُ من هذا؟

إن مِثْل هذا المنهج الذي يكفل أمان الجميع يستحق أن يدافع الإنسان عن تطبيقه، وقبل أن يفرض علينا القتال أوضح سبحانه: هذا هو المجتمع الذي ستقاتلون من أجله.

واعلم أنك ساعة تذهب إلى القتال، أقصى ما فيها أن تُقتل، فستأخذ صفقة الآخرة، وقصرت مسافة غاياتك؛ لأن كل شيء إنما يُقاس بزمن الغاية له، فإنْ قُتلْت فقد قصرت المدة للوصول إلى الغاية، فتصل إلى الجنة.

والحُمْق هو الذي يصيب الناس عندما يموت عزيز أو حبيب فيغرقون في الحزن، نقول لهم: ألسنا جميعاً سائرين إلى هذه الغاية، فلماذا الغرق في الحزن إذن؟

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يكافئ مَنْ يُقتل في سبيل اللَّه بحياة في عالم الغيب، وفيها رزق أيضاً.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

فاللَّه ـ تبارك وتعالى ـ أراد أن يفهم المؤمنون أن الذي يُقتل في سبيل

اللَّه لا يموت، وإنما يعطيه اللَّه لَوْناً جديداً من الحياة، فيه من النعم ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى، فهو حَيٌّ عند ربه ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة مباشرة، ولا يكتب عليه الموت في حياة البرزخ حتى يوم القيامة مثل من يموت ميتة طبيعية ولا يموت شهيداً؛ ولأن هذه الحياة حياة الشهداء أخفى اللَّه سبحانه عنا تفاصيلها، لأنها من حياة الآخرة، وهي غيب عنا قال تبارك وتعالى:

﴿ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٤].

وما دُمْنَا لا نشعر بها فلا بُدَّ أن تكون حياة أعلى من حياتنا الدنيوية.

فالحق ـ جَلَّ جلاله ـ يعطي الشهداء حياةً دائمة خالدة؛ لأنهم ماتوا في سبيله، وما دام قال تعالى: ﴿ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٤]، فلا تحاول أنْ تدركها بشعورك وحِسِّك؛ لأنك لن تدركها، على أن الشهيد لا بُدَّ أنْ يُقتل في سبيل اللَّه، وليس لأيِّ غرض دنيوي، وإنما لتكون كلمة اللَّه هي العليا.

وفي آية أخرى يقول سبحانه:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

فأنتم تخافون الموت، ولكن هؤلاء الذين قُتِلوا في سبيل اللَّه ليسوا بميتين؛ لأن حياتهم حياة موصولة: إن هناك فارقاً كبيراً بين الموت والشهادة، فالذي يُقْتَل شهيداً تكون حياته موصولة، ولن يمر بفترة موتنا نحن، ولنفهم أنهم أحياء عند ربهم أيْ بقانونه سبحانه، فلا تُحكّم قانونك أنت، فأنت ـ كما قلت ـ لو فتحت القبر ستجد هؤلاء القَتْلَى مجرد أشلاء، هم عندك أشلاءٌ وأموات في قانونك أنت، لكنهم أحياء عند ربهم يُرزقون.

فالحياة تختلف عن الموت في ماذا؟

إن الإنسان إذا زهقتْ روحه وفارقتْ جسده انقطعتْ حياته، في ظاهر الأمر انتهى ولم يَعُد ينتفع برزق ولا بأكل؛ لأن الرزق جُعِل لاستبقاء الحياة، وما دام الرزق قد صُنِع لاستبقاء الحياة وليس فيه حياة إذن: فلا رِزْق، لكن اللَّه سبحانه يريد أنْ يعطينا مواصفات تؤكد أن الشهيد حَيٌّ.

ومن ضروريات الحياة أنه يُرزق، أي: ينتفع باستبقاء الحياة، وعلينا أن

نفهم أن العِنْدية عندك غير العِنْدية عند اللَّه، فالشهيد حَيٌّ عند ربه ويُرزق عند ربه رِزْقاً يناسب الحياة التي أرادها له ربه.

ونعلم أن الرزق هو الخاصية التي تُوجَد للأحياء.

وعندما نقرأ قول اللَّه: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

قد يقول قائل: من الجائز أنك تأخذ إنساناً وتُبقيه حَياً وتعطيه طعاماً وشراباً، لكن، أهو فَرِح بموقعه؟ لا، لذلك يجب أنْ ندرك ونعرف أن حياة الشهيد ليست في قبره ولكنها عند ربه، وهو فرِح بموقعه لذلك.

ولذلك يُقال: احرص على الموت تُوهَب لك الحياة؛ لذلك كان الفرار يوم الزحف كبيرة من الكبائر؛ لأن الفرار يصنع خللاً في المجتمع الإيماني، لأن معنى الزحف أن أعداء الإسلام أغاروا علينا، وما داموا قد أغاروا علينا فكل مسلم يقف على ثُغْرة من ثغور الإسلام، حتى لا يمكّن أعداء الإسلام من ديار الإسلام، ولتظل كلمة اللَّه هي العليا، ففرار المسلم يعطي أُسْوة على ضَعْف الإيمان في النفس.

لذلك؛ لا تغترُّوا بأن هذا صار مؤمناً، وذاك صار مؤمناً، فلو كان مؤمناً حقاً ووثق بالغاية فهو لا يهاب القتال، لأنه إنْ قُتِل صار شهيداً ومُبشَّراً من اللَّه بكذا وكذا.

لذلك، فالفرار في يوم الزحف يعطي أُسْوة سيئة ليس في الحرب فقط، بل سيعطي شيوع خلخلة إيمانية في النفس البشرية.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ أوضح أن المؤمن عندما يدخل الحرب يرغب في أحد أمرين كلاهما حَسَن: النصر أو الشهادة، فقال سبحانه:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢].

فالذي يدخل القتال هو أمام أمرين اثنين: إما أنْ يُقتل من الأعداء، وإما أنْ ينتصر، وهذه هي القضية الجدلية التي تنشأ بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، والمقاتل من معسكر الإيمان يقول لمعسكر الكفر: أنا أقاتل لإحدى الحسنيين:

ـ إما أن أُقتل فأصبح شهيداً آخذ حياةً أفضل من هذه الحياة.

ـ وإما أنْ أنتصر عليك.

فماذا تتربّصون بنا أيها الكفار؟

إن المؤمن يثق أنه فائز بكل شيء، فإن قُتِل ذهب إلى الجنة وإلى حياة أفضل من حياتكم، وإما أن ينتصر، والحالتان على سواء من الخير.

وهكذا أزال الحق سبحانه وتعالى الخوف من نفوس المؤمنين، فماذا سيحدث لكم من جنود الكفر؟ إما أن تستشهدوا فتدخلوا الجنة، وإما أن تنتصروا.

ولذلك قال تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ . . .﴾ [التوبة: ١٣].

هذا استفهام استنكاري معناه: ما كان يصح أبداً أن تخشوهم وتخافوهم؛ لأنهم لو كانوا أقوى منكم وتغلّبوا عليكم فُزْتم بالشهادة، ولو كانوا أضعف منكم وتغلبتم عليهم فُزْتم بالنصر.

وكلاهما أمر جميل مُحبَّب لنفوس المؤمنين باللَّه يُحدِث تثبيتاً لقلوبهم وأقدامهم في مواقف القتال والنِّزال.

ثم يأتي الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بالحكم النهائي، فيقول:

﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

أي: رَاجِعوا إيمانكم، فإنْ كنتم مؤمنين باللَّه فأنتم راغبون في الشهادة، وإنْ كنتم مؤمنين باللَّه القادر القوي القهار فأنتم تعرفون اللَّه وقدرته وقوته، وهي لا تُقارن بالقوة البشرية، فإما أنْ تنتصروا عليهم، فتكون لكم فرحة النصر، وإما الاستشهاد وبلوغ الجنة، وكلتا النتيجتين خير.

فيما ضَيَّعْتَ حُقُوقَ النَّاسِ

٤٨ ـ قال رسول اللَّه ﷺ في الحديث القدسي فيما يرويه عن رب العزة سبحانه:

«يَدْعُو اللَّهُ بصَاحِبِ الدَّيْنِ يَوْمَ القيامَةِ، حتَّى يُوقَفَ بَيْنَ يَدَيْه، فَيُقَال:

يا ابْنَ آدمَ فِيمَا أخذْتَ هَذَا الدَيْنَ؟ وفيما ضيَّعْتَ حُقُوقَ النَّاس؟

فيقول: يَا ربِّ، إنكَ تعلَمُ أَنِّي أَخَذْتُه فَلَمْ آكُلْ، ولم أَشْرَبْ، ولم أَلْبَسْ، ولم أُضيِّع، ولكِنْ أَتَى عَلى يَدِي إمَّا حرق، وإمَّا سَرَق، وإما وَضِيعَة.

فيقول اللَّهُ عزَّ وجَلَّ: صَدَقَ عَبْدي، أنَا أحقُّ مَنْ قَضَى عنْكَ اليَوْمَ، فيدعُو اللَّهُ بشيءٍ، فيضعُه في كفَّةِ ميزانِهِ، فَتَرْجُحُ حَسَنَاتُه عَلَى سَيئاتِه، فيدخلُ الجنةَ بفضْلِ رَحْمتِه»[1].

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُقَدِّر حركة الإنسان وعرقه، ما دام قد ضرب في الأرض وسَعَى فيها، فالمال مال الإنسان، ولكن أخا الإنسان قد يحتاج إليه، ولذلك فليقرضه، ويعتبر سبحانه هذا قَرْضاً من الإنسان للَّه.

ونحن نجد عائل الأسرة يقول لأحد أبنائه: بما أنك تدخر من مصروف يدك فأعْطِ أخاك ما يحتاج إليه واعتبر ذلك قرضاً عندي، صحيح أن العائل هو الذي أعطى المال لكل مَنْ يعول: فما بالنا بالذي أوجدنا جميعاً، وهو الحق سبحانه وتعالى؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ١٩٨) من حديث عبد الرحمٰن بن أبي بكر رضي اللَّه عنه. وكذا أخرجه (١/ ١٩٧) ولكن بلفظ: «إن اللَّه عز وجل ليدعو بصاحب الدين يوم القيامة فيقيمه بين يديه فيقول: أي عبدي، فيم أذهبتَ مال الناس فيقول: أي رب قد علمت أني لم أفسده، إنما ذهب في غرق أو حرق أو سرقة أو وضيعة فيدعو اللَّه عز وجل بشيء فيضعه في ميزانه فترجح حسناته».

لقد وهب كلًّا مِنَّا ثمرة عمله، واعتبر تلك الثمرة مِلْكاً لصاحبها، ويعتبر فوق ذلك إقراضُ المحتاج إقراضاً له.

والحق سبحانه يحمي المقترض من نفسه، فيقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فاللَّه ـ تبارك وتعالى ـ يحمي المقترض من نفسه؛ لأنه إذا عَلِم أن الدَّيْن مكتوب يحاول جاهداً أنْ يتحرك في الحياة ليسدَّ هذا الدين، ويستفيد المجتمع من حركته أيضاً.

فعندما يُكتب القرض فهذا أمر دافع للسداد وحَاثٌّ عليه، لكن إنْ لم يُكتب القرض فقد يأتي ظرف من الظروف ويتناسى القرض، ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتدَّ له يد من بعد ذلك بالمعاونة في أيِّ أزمة، فيريد الحق أنْ يُديم الأسباب التي تتداول فيها الحركة.

ولذلك يقال في الأمثال العامية: مَنْ يأخذ ويعطي يصير المال ماله، ويكون مال الدنيا كلها معه.

إنه يقترض ويُسدِّد؛ لذلك يثق فيه كل الناس، ويرونَه أميناً، ويرونه مُجدّاً، ويرونَه مخلصاً، ويعرفون عنه أنه إذا أخذ وفّى، فكل المال يصبح ماله.

إنه تشريع سماوي، فلا تأخذ أحداً الأريحيةُ، فيقول لصاحبه: نحن أصحاب أو أصدقاء، فقد يموت واحد منكما، فإنْ لم تكتب الدَّيْن حرجاً، فماذا يفعل الأبناء، أو الأرامل، أو الورثة؟

إذن: فإلزام الحق بكتابة الدَّيْن هو تنفيذ لأمر من اللَّه يحقق رَفْع الحرج بين الأحبّاء، ويظن كثير من الناس أن اللَّه يريد بالكتابة حماية الدائن. لا، إن المقصود بذلك هو حماية المدين؛ لأن المدين إنْ علم أنَّ الدَّيْن عليه مُوثَّق حرص أن يعمل ليؤدي دَيْنه.

أما إذا كان الدَّيْن غير مُوثَّق، فمن الجائز أنْ يكسل عن العمل وعن سداد

الدين، وبذلك يحصل هو وأسرته على حاجته مرة واحدة، ثم يضنّ المجتمع الغني على المجتمع الفقير فلا يُقْرضه، ويأخذون عجزَ ذلك الإنسان عن السداد ذريعةً لذلك، ويقع هذا الإنسان الذي لم يُؤدِّ دَيْنه في دائرة تحمُّل الوِزْر المضاعف؛ لأنه ضيَّق باب القرض الحسن.

إن اللَّه يريد أنْ يسير دولاب الحياة الاقتصادية عند مَنْ لا يملك؛ لأن مَنْ يملك يستطيع أن يُسيِّر حياته، أما مَنْ لا يملك فهو المحتاج.

لذلك أخذتْ قضية الدين اهتمام الإسلام ليحمي الدائن والمدين معاً، كي لا تقف حركة التعامل بين الناس، ومع هذا فإنه لم يمنع الأريحية الإيمانية والمروءة أنْ تسلك طريقها في عالم الوُدِّ والإخاء المؤمن، فإنْ كان لك قريب أو إنسان لك به صِلَة، وأنت تأمنه على ما اقترض منك.

يقول لك الحق سبحانه: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ . . .﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وبهذا القول يُشْعِر مَنْ يحمل أمانةً من الغير بالخجل، فيعمل على ردِّها وقد يكون الإنسان مسافراً واضطر إلى أنْ يستدين، ولا يوجد كاتب ولا شهيد، فماذا يكون الموقف؟

ها هو ذا الحق يوضح لك: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ . . .﴾ [البقرة: ٢٨٣]، إذن: فلم يترك اللَّه مسألة الدَّيْن حتى في السفر فلم يشرع فقط للإقامة، ولكن الحق قد شرع أيضاً للسفر.

والشهادة في الإقامة والرهان المقبوضة في السفر هدفها حماية الإنسان أمام ظروف ضغط المجتمع.

ولكن، هل يمنع الحق ـ سبحانه وتعالى ـ طموحية الإيثار؟ هل يمنع الحق ـ سبحانه وتعالى ـ رجولية التعامل؟ هل يمنع الحق سبحانه وتعالى المروءات من أنْ تتغلغل في الناس؟

لا، إن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ . . .﴾ [البقرة: ٢٨٣].

إنه الطموح الإيماني، لم يسدّ اللَّه مسألة المروءة والإيثار في التعامل.

وحين نرتقي إلى هذا المستوى في التعامل فإن وازع الإنسان ليس في التوثيق الخارج عن ذات النفس، ولكنه التوثيق الإيماني بالنفس، ولكن أنضمن أن يوجد التوثيق الإيماني عند كل الناس؟

أنضمن الظروف؟ نحن لا نضمن الظروف، فقد توجد الأمانة الإيمانية وقت التحمل والأخذ، ولا نضمن أن توجد الأمانة الإيمانية وقت الأداء، فقد يأتي واحد ويقول لك: إن عندي مائة جنيه فخذها أمانة عندك.

ومعنى «أمانة» أنه لا يوجد صَكٌّ ولا شهود، وتكون الذمة هي الحكم، فإنْ شئتَ أقررتَ بهذه الجنيهات المائة، وإنْ شئت أنكرتها، إن الرجل الذي يفعل معك ذلك إنما يطلب منك توثيق المائة جنيه في الذمة الإيمانية.

ومن الجائز أن نقول له لحظة أن يفعل معك ذلك: نعم سأحتفظ لك بالمائة جنيه بمنتهى الأمانة، وتكون نيتك أن تُؤدّيها له ساعة أنْ يطلبها، ولكنك لا تضمن ظروف الحياة بالنسبة لك، وأنت كإنسان من الأغيار، ومن الجائز أن تضغط عليك الحياة ضغطاً يجعلك تماطل معه في أداء الأمانة، أو يجعلك تنكرها.

والأمانة هي القضية العامة في الكون، وقد عرضها الحق سبحانه بعمومها على الكون كله، فقال سبحانه:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

إن الكون كله أشفق على نفسه من تحمُّل الأمانة، وهذا يعني أن الأمانة سوف تكون عُرْضة للتصرّف والاختيار، ولا كائن في الكون قد ضمن لنفسه القدرة على الوفاء وقت الأداء.

لقد أعلنت الكائنات قولها فأبيْنَ تحمُّلها الأمانة وكأنها قالت: إنّا يا ربنا نريد أن نكون مُسخَّرين مقهورين لا اختيارَ لنا؛ ولذلك نجد الكون كله يؤدي مهمته كما أرادها اللَّه ما عدا الإنسان. أي: أنه الذي قَبِل بما له من عقل وتفكير أن يتحمَّل أمانة الاختيار. وبلسان حاله أو بلسان مقاله قال: إنني قادر على تحمُّل الأمانة؛ لأني أستطيع الاختيار بين البدائل.

وهنا نُذكِّر الإنسان: إنك قد تكون قوياً لحظة التحمُّل، ولكن ماذا عن

حالك وقت الأداء؟ لذلك قال اللَّه عن الإنسان: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

لقد ظلم الإنسان نفسه حيث حمل الأمانة ولم يَفِ بها؛ فلذلك فهو ظلوم، وهو جهول لأنه قدَّر وقت التحمُّل، ولم يُقدِّر وقت الأداء، أو ضمنها ثم خاس وخالف ما عاهد نفسه على أدائها.

ومعنى الأمانة هو: ما يكون لغيرك عندك من حقوق، وأنت أمين عليها. إنْ شئت فعلتها، وإنْ شئت لم تفعلها، أنت تقول: أنت أودعتَ عند فلان أمانة، هذه الأمانة لو كانت بإيصال لما كانت أمانة؛ لأن هناك دليلاً، ولو كان ما أودعته عند ذلك الإنسان عليه شهود لا تكون أمانة.

فالأمانة أن تُودِع عنده شيئاً، وضميره هو الحكم، إنْ شاء أقرَّ بما عنده لك حين تطلبه، وإنْ شاء لم يُقر به، وقد يقع التلاعب أو الإنكار، لأن الأمانة لا تثبت إلا بذمة الآخذ الذي قد يضعف عن الأداء، وتلجئه الأحداث إلى هذا التلاعب أو الإنكار، والأحداث قد تكون أقوى من الرجال.

ولذلك نجد رسول اللَّه ﷺ وهو الرحيم بالمؤمنين، وقد بلغه أن واحداً قد مات وهو عليه دين، فقال للصحابة: صلوا على أخيكم أما هو فلم يُصَلِّ على الميت، وتساءل الناس: لماذا لم يُصَلِّ رسول اللَّه على هذا الميت؟ وما ذنبه؟

كأن رسول اللَّه ﷺ أراد أن يُعلِم المؤمنين عن دَيْن المدين فلم يمنع الصلاة، ولكنه لم يُصَلِّ عليه حَفْزاً للناس ودَفْعاً لهم إلى أنْ يبرئوا ذمتهم بسداد وأداء ما عليهم من دَيْن.

فقال رسول اللَّه ﷺ: **«مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى اللَّه عنه، ومَنْ أخذها يريد إتلافها أتلفه اللَّه»**[1].

فما دام قد مات وهو مدين، وليس عنده ما يسدّ الدَّيْن، فربما كان لا ينوي رَدّ الدَّيْن، وأن نفسه قد حدَّثته بألَّا يردّ الدَّيْن.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٦١، ٤١٧) والبخاري في صحيحه (٢٣٨٧) وكذا ابن ماجه في سننه (١/ ٢٤) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

وفي فلسفة هذا الأمر نفسياً نجد أن المقترض عندما يقترض شيئاً كبيراً لا يستطيع أنْ يتجاهله أو ينساه، ثم لا يمر بذِهْن الذي أقرض أن فلاناً مدين، بل وقد تبلغ الحساسية بالذي قدَّم القرض ألّا يمرّ على المقترض حتى لا يحرجه.

ونثق أن اللَّه قد قذف هذا الخاطر في نفس المقرض لأن المقترض يريد أن يسدد القرض، أما إنْ تحرك قلب الدائن على المدين، وجلس يفكر في قيمة الدين، فليُفهم أن عند الذي اقترض بعض ما يُسدِّد به الدَّيْن، أي: أن المدين عنده القدرة على الوفاء بالدَّيْن أو ببعضه، ذلك أن اللَّه لا يحرج مَنْ يجدّ ويجتهد في السعي لسداد دَيْنه.

وهناك مَنْ هو معذور بحق ومعذور بباطل، فالمعذور بحق هو الذي يحاول جاهداً أنْ يُسدِّد دَيْنه، ولكن الظروف تقف أمامه وتحول دون ذلك، أما المعذور بباطل فيجد عنده ما يسدُّ دَيْنه، ولكنه يماطل في السداد ويبقي المال ينتفع به وهو بهذا ظالم.

ولذلك جرِّب نفسك، ستجد أن كل دَيْن يشتغل به قلبك فاعلم أن صاحبه قادر على السداد ولم يسدد، وكل دَيْن كان بَرْداً وسلاماً على قلبك، فاعلم أن صاحبه معذور بحق ولا يقدر أنْ يُسدِّد، وربما استحييت أنت أنْ تمرَّ عليه مخافة أنْ تحرجه بمجرد رؤيتك.

وهؤلاء لا يطول بهم الدَّين طويلاً؛ لأن الرسول ﷺ حكم في هذه القضية حكماً، فقال ﷺ: «**مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى اللَّه عنه، ومَنْ أخذها يريد إتلافها أتلفه اللَّه**».

فما دام ساعة أخذها في نيته أن يؤدي فإن اللَّه ييسر له سبيل الأداء، ومَنْ أخذها يريد إتلافها، فاللَّه لا ييسر له أنْ يُسدِّد؛ لأنه لا يقدر على ترك المال يسدد به دينه.

ونحن نرى في حياتنا الذين يأخذون أموال الناس بغير حق؛ نرى مصارف هذه الأشياء قد ذهبت وأنفقت في مهالك ومصائب، إننا نجدها قد أخذت ما أخذوه من جرام، ومالتْ وجارت على ما كسبوه من حلال.

وأريد من المسرفين على أنفسهم أنْ يضعوا لأنفسهم كشف حساب فيكتبوا في ناحية القرش الذي كسبوه من حرام، ويكتبوا من ناحية أخرى كل

قرش كسبوه من حلال، وليشاهد كل مسرف على نفسه في أَكْل حقوق الناس المصائب التي سيبتليه اللَّه بها، وسيجد أنه قد صرف لمواجهة المصائب كل الحرام وبعضاً من الحلال.

ولذلك قيل: «**من أصاب مالاً من مهاوش**(١)، **أذهبه اللَّه في نهابر**(٢)»(٣).

وكذلك في المقابل: مَنْ صدق الناس ووفَّى لهم في بيعه وشرائه وتعاملاته يسَّر اللَّه له مَنْ يُوفِّي له ويصدق معه.

وقد نهى الحق سبحانه عن أكل أموال الناس بالباطل، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ . . .﴾ [النساء: ٢٩].

فالحق سبحانه يتكلم عن المال، وهو الذي يقيم الحياة، والمال كما نعرف ثمرة الجهد والمشقة، وكل ما يتموّل يعتبر مالاً، ومن حَظّ المجتمع أن نصون حركة الحياة، ونُؤمِّن كل متحرك في الحياة على ماله، فلا بُدَّ أن نرعى حركة المتحرك ونُنميها؛ لأن المجتمع ينتفع منها.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يأتي لمسائل المال ويُوضِّحها توضيحاً تاماً ليحمي حركة الحياة، ويُغري الناس بالحركة، وبذلك يتعدّد المتحركون وتتعدد الحركات، ويستفيد المجتمع.

وهذا أمر لجماعة المؤمنين كلهم، فالأوامر من الحق ليست مُوجَّهة لطائفة دون غيرها، فليست هناك طائفة خُلِقت على أن تكون آكلة، وطائفة خُلِقت على أن تكون مأكولة، بل كل واحد عُرْضة في مرة أن يكون آكلاً لمال غيره، ومرة أخرى يكون ماله مأكولاً.

فأنا إذا أكلتُ مال غيري فسوف يأكل غيري مالي، فأكون قد جسدت له أسوة يقتدي بها، فيأكل مالي أيضاً، فكأنه سبحانه عندما يقول لك: لا تأكل مال غيرك، إنما ليحمي لك مالك.

---

(١) المهاوش: مكاسب السوء، فهو كل مال يُصاب من غير حِلّه ولا يُدْرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك. (لسان العرب ـ مادة: هوش).

(٢) النهابر: المهالك. أي: أذهبه اللَّه في مهالك وأمور متبددة (اللسان ـ مادة: نهبر).

(٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣١٣) وعزاه للقضاعي عن أبي سلمة الحمصي مرفوعاً، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له. قال التقى السبكي: لا يصح.

obeikandi.com

إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يصنع من المجتمع الإيماني مجتمعاً واحداً، ويقول: إن المال الذي عند كل واحد هو للكل، وأنك إنْ حافظت على مال غيرك حافظ غيرك على مالك، وأنت إنِ اجترأتَ على مال غيرك فسيجترئ المجموع على مالك، وأنت ساعةَ تأكل مال واحد تُجرّئ آلاف الناس على أن يأكلوا مالك، وحين لا تأكل مال غيرك كأنك لم تأكل مالك.

وكيف يتأتّى أكْل أموال الناس بالباطل؟ هذا هو الآخذ بالربا، أو الآخذ بالسرقة، أو بالاختلاس، أو بالرشوة، أو بالغش في السلع، كل ذلك هو أكْل مال بالباطل، وساعة تريد أن تأكل مالاً بالباطل، كأنك تريد أن تتمتع بثمرة عمل غيرك، وأنت بذلك تتعوَّد على التمتع بثمرة عمل غيرك، وتضمحل عندك قدرة العمل، ويصير أَخْذك من غيرك، أخْذاً لماله كرهاً وبغير وجه حق.

وبذلك تتعطّل حركة مُتحرّك في الحياة، وهو ذلك العاطل «البلطجي»، ويخاف المتحرك في الحياة وهو مَنْ تُفْرض عليه الإتاوة فيقلّ ويضعف نشاطه في الحياة، كيف يكون شكل هذا المجتمع؟ إن المجتمع في هذه الحالة سيعاني من كرب وصعوبات في الحياة.

فقوله سبحانه: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ . . .﴾ [النساء: ٢٩].

هو أمر لكل مسلم: لا تُرَابِ، ولا تسرق، ولا تغشّ، ولا تُدلِّس، ولا تلعب مَيْسِراً، ولا تختلس، ولا ترتشِ؛ لأن كل هذه الأمور هي أَكْل أموالِ بالباطل.

الحق قال لك: لا تأخذ مال غيرك لكي لا يأخذ غيرك مالك، وبذلك تكسب أنت ويكسب كل المجتمع، فحين يصدر أمر لإنسان أن يكف يده عن السرقة، فهو أمر للناس جميعاً كي يكفُّوا عن سرقة هذا الإنسان؟ لذلك فحين تستقبل أيَّ حكم عن اللَّه لا تنظر إلى ما أخذه الحكم من حريتك، ولكن انظر إلى ما أعطاه الحكم لصالحك من حرية الآخرين.

إن اللَّه يريد أن تكون حركة حياتنا نظيفة شريفة، حركة كريمة فلا يدخل في بطنك إلا ما عرقت من أجله، ويأخذ كل إنسان حقه، وقبل أن يفكر الإنسان في أن يأكل عليه أن يتحرك ليأكل، لا أنْ ينتظر ثمرة حركة الآخرين؟ لماذا.

إن الحق يريد للإنسان أنْ يتحرك ليُشبع حاجته من طعام وشراب ومأوى، وبذلك تستمر دورة الحياة، إنه سبحانه يريد أن يضمن لنا شرف الحركة في الحياة، بمعنى أن تكون لك حركة في كل شيء تنتفع به؛ لأن حركتك لن يقتصر نفعُها عليك، ولكنها سلسلة متدافعة من الحركات المختلفة.

وحين تشيع أنت شرف الحركة، فالكل سيتحرك نحو هذا الشرف، لكن الباطل يتحقق بعكس ذلك، فأنت حين تأكل من حركة الآخرين تشيع الفوضى في الكون.

وعلى هذا، فالحركة الحلال لا يكفي فيها أن تتحرك فقط، ولكن يجب أن تنظر إلى شرف الحركة بألا تكون في الباطل؛ لأن الذي يسرق إنما يتحرك في سرقته، ولكن حركته في غير شرف وهي حركة حرام.

إذن: كل مسروق في الوجود نتيجة حركة باطلة، وكذلك الغصب، والتدليس، والغِشّ، وعدم الأمانة في العمل، والخيانة في الوديعة، وإنكار الأمانة، كل ذلك باطل، وكل حركة في غير ما شرع اللَّه باطلة، حتى المعونة على حركة في غير ما شرع اللَّه، كُلُّ ذلك باطل.

إذن: فقوْلُ اللَّه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ . . .﴾ [البقرة: ١٨٨]، تنبيه للناس ألَّا يُدخلوا في بطونهم وبطون مَنْ يعولون إلا مالاً من حَقٍّ، ومالاً بحركة شريفة، نظيفة، وليكن سند المؤمن دائماً قول الحق: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا • وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

ولنا أن نعرف أن مَنْ أكل بباطل جاع بحقٍّ. أي: أن اللَّه يبتليه بمرض يجعله لا يأكل من الحلال الطيب، فتجد إنساناً يمتلك أموالاً، ويستطيع أنْ يأكل من كل ما في الكون من مَطْعم ومَشْرب، ولكن الأطباء يُحرّمون عليه الأكل من أطعمة متعددة؛ لأن أكْلها وبال وخطر على صحته، وتكون النعمة أمامه ومِلْك يديه، ولكنه لا يستطيع أن يأكل منها.

وفي الوقت نفسه، يتمتّع بالنعمة أولاده وخدمه وحاشيته وكل مَنْ يعولهم، مثل هذا الإنسان نقول له: لا بُدَّ أنك أخذتَ شيئاً بالباطل، فحرمك اللَّه من الحق.

ومن هنا نقول: « **مَنْ أكل بباطل جاع بحق** »، وكذلك نقول: « **من استغلّ وسيلة في باطل أراه اللّه قبحها بحق** » فالذي ظلم الناس بقوته وبعضلاته المفتولة لا بُدَّ أن يأتي عليه يوم يصبح ضعيفاً.

والمرأة التي تهزّ وسطها برشاقة لا بُدَّ أن يأتي عليها يوم يتيبس وسطها، فلا تصبح قادرة على الحركة، والتي تخايل الناس بجمال عيونها في اليمين والشمال لا بُدَّ أن يأتيها يوم وتعمى فلا ترى أحداً، وينفر الناس من دمامتها.

وقد وصف الحق سبحانه أكل الحرام أنه سُحْت، وهو كل شيء تأخذه من غير طريق الحلال، كالرشوة أو الربا أو السرقة أو الاختلاس أو الخطف، وكل أنواع المقامرة والمراهنة، كل ذلك اسمه سُحْت.

قال تعالى عن بني إسرائيل أنهم: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ . . .﴾ [المائدة: ٤٢].

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ . . .﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فالحق سبحانه لم يكلفنا إلا بما هو في وُسْعنا وطاقتنا.

أي: أن اللّه لن يُحمِّلنا ما لا طاقة لنا به، وعندما نقول: « واعف عنا »، فنحن نتوجه إلى اللّه ضارعين: أنت يا حق تعلم أننا مهما أوتينا من اليقظة الإيمانية والحرص الورعي فلن نستطيع أن نؤدي حقك كاملاً؛ ولذلك لا ندخل عليك إلا من باب أن تعفو عنا.

ومعنى العفو محو الأثر، كالسائر في الصحراء تترك قدماه علامة وتأتي الريح لتزيل هذا الأثر، كأن هناك ذنباً والذنب له أثر، وأنت تطلب من اللّه أن يمحو الذنب.

يَا عَبْدِي.. تَمَنَّ عَليَّ أُعْطِكَ

٤٩ ـ عن جابر بن عبد اللَّه قال: لقيني رسول اللَّه ﷺ فقال: «يا جابر، مَا لِي أَراكَ مُنكَسِراً؟»

قُلْتُ: يا رسُولَ اللَّهِ، اسْتُشْهِدَ أَبِي، قُتِل يَوْم أُحُدٍ، وتَركَ عِيَالاً وَدَيْناً.

قال: «أَفَلا أُبشّركَ بما لَقِي اللَّهُ بِهِ أَباكَ؟» قُلْتُ: بلَى يا رسُولَ اللَّهِ.

قال: «ما كَلَّم اللَّهُ أَحداً قَطُّ، إلّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وأَحْيَا أَبَاكَ، فكلَّمه كِفاحاً»[1]، فَقَالَ:

يَا عَبْدي، تَمَنَّ عَليَّ أُعْطِكَ.

قال: يا ربِّ، تُحْيِيني، فأُقْتَلُ فِيكَ ثَانِيةً.

قَالَ الربُّ عَزَّ وجَلَّ: إنَّه قَدْ سَبَق مِنِّي أنهم لَا يَرجِعُونَ.

قال: وأُنزِلتْ هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧١][2].

الشهادة في سبيل اللَّه هي أعلى مرتبة إيمانية يستطيع الإنسان المؤمن أنْ يصلَ إليها في الدنيا، رغم أن القتل هو أشد ما يمكن أن يقع على الإنسان، فأنت تُصاب في مالك، أو في ولدك، أو في رزقك، أو في صحتك، أما أنْ تصاب في نفسك فتُقتل، فهذه هي المصيبة الكبرى.

---

(١) كفاحاً: أي مواجهة، ليس بينهما حجاب ولا رسول. (لسان العرب ـ مادة: كفح).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٣٦١)، وابن ماجه في سننه (١٩٠، ٢٨٠٠) والحاكم في مستدركه (٢/ ١٢٠) (٣/ ٢٠٧)، وابن أبي عاصم في كتاب السنة (١/ ٢٦٧) والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٩٨)، وأورده ابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ٣٢٨).

وقد سَمَّى الحق سبحانه الموت مصيبة، فقال تعالى:

﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ . . . ﴾ [المائدة: ١٠٦].

اللَّه تبارك وتعالى أراد أن يفهم المؤمنون أن الذي يُقتَل في سبيل اللَّه لا يموت، وإنما يعطيه اللَّه لَوْناً جديداً من الحياة، فيه من النعم مَا لا يُعَدُّ ولا يُحْصى.

يقول جل جلاله: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٤].

ما هو مظهر الحياة التي يعيشونها؟ الحياة عندنا مظهرها الحركة، والذي قُتِل في سبيل اللَّه، ما هي حركته؟ حركته بالنسبة لغير المؤمنين خصوم الإسلام والإيمان بأنه لن يسلب منه الحياة؛ لأنه سيذهب إلى حياة أسعد، والموت ينقله إلى خير مما هو فيه.

فإذا كان الكفار قد قتلوه فهم لم يسلبوه شيئاً وإنما نقلوه إلى نعمة أكبر مما كان يعيش فيها، أما بالنسبة للمؤمنين فإنه سيحمي لهم منهج اللَّه ليصل إليهم، إلى أنْ تقوم الساعة.

إن كل المعارك التي يستشهد فيها المؤمنون إنما هي سلسلة متصلة لحماية حركة الإيمان في الوجود، وعظمة الحياة ليست في أنْ أتحرك أنا، ولكن أنْ أجعل مَنْ بعدي يتحرك.

والمؤمن حين يستشهد يبقى أثره في الوجود لكل حركة من متحرك بعده، فكل حركة لحماية الإيمان تستشهد به وبما فعله وتأخذ من سلوكه الإيماني دافعاً لتقاتل وتستشهد، فكأن الحركة متصلة والعملية متصلة.

أما الكافر فإن الحياة تنتهي عنده بالموت، ولكن تنتظره حياة أخرى حينما يبعث اللَّهُ الناسَ جميعاً، ثم يأتي بالموت فيموت، وحين يموت الموت تصبح الحياة بلا مَوْت، إما في الجنة وإما في النار.

اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ يريدنا أن نعلم أن مَنْ يُقتل في سبيل اللَّه هو حَيٌّ عند ربه ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة مباشرة، ولا يُكتب عليه الموت في حياة البرزخ حتى يوم القيامة مثل مَنْ يموت ميتة طبيعية، ولا يموت

شهيداً؛ ولأن هذه الحياة حياة الشهداء أخفى اللَّه سبحانه عنّا تفاصيلها؛ لأنها من حياة الآخرة، وهي غَيْبٌ عنا.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

وما دُمْنَا لا نشعر بها، فلا بُدَّ أن تكون حياة أعلى من حياتنا الدنيوية، والذي اسْتُشهد في عُرْف الناس سلب نفسه الحياة، ولكنه في عُرْف اللَّه أخذ حياة جديدة، ونحن حين نفتح قبر أحد الشهداء نجد جسده كما هو، فنقول: إنه ميت أمامنا.

لا بُدَّ أن تتنبه أنك لحظةَ فتحتَ عليه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، واللَّه سبحانه قال: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ . . .﴾ [آل عمران: ١٦٩].

ولم يقل: أحياء في عالم الشهادة، فهو حَيٌّ ما دام في عالم الغيب، ولكن أن تفتح وتكشف تجده جسداً ميتاً في قبره وليس حياً، لأنه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

أما كيف؟ قُلْنَا: إن الغيب ليس فيه كيف؛ لذلك لن تعرف، وليس مطلوباً منك أن تعرف.

إننا حين نُجري عملية جراحية لمريض يعطيه الطبيب (البنج) لكي يفقده الوعي والحسّ، ولكن لا يعطيه له ليموت، ثم يبدأ يُجري العملية فلا يشعر المريض بشيء من الألم، فالمادة لا تحسّ لأنها هي التي أجريت عليها العملية، والجسد لا زال فيه الحياة، من نبض وتنفس، ولكنه لا يحس، ولكن النفس الواعية التي غابتْ هي التي تحسُّ بالألم.

أنت عندما يكون هناك ألم في جسدك وتنام ينقطع الإحساس بالألم، فكأن الألمَ ليس مسألة عضوية، ولكنه مرتبط بالوعي، فعند النوم تنتقل إلى عالم آخر قوانينه مختلفة، والعلماء فحصوا مُخَّ الإنسان وهو نائم، فوجدوا أنه لا يستطيع أن يعمل أكثر من سبع ثوانٍ يرى فيها رُؤْيَا يظل يحكيها ساعات.

فإذا قال الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ . . .﴾ [آل عمران: ١٦٩].

فلا بُدَّ أن نأخذ هذه الحياة على أنها بقدرات اللَّه ومن عنده.

واللَّه عز وجل أراد أنْ يُقرِّب لنا مسألة البعث والقيامة مثل مسألة النوم، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى . . .﴾ [الزمر: ٤٢].

فكان الحق جل جلاله يعطي الشهداء حياةً دائمة خالدة لأنهم ماتوا في سبيله، وما دام الحق سبحانه قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، فلا تحاول أن تدركها بشعورك وحِسِّك؛ لأنك لن تدركها، على أن الشهيد لا بُدَّ أنْ يُقتَل في سبيل اللَّه وليس لأيِّ غرض دنيوي، وإنما لتكون كلمة اللَّه هي العليا.

ويقول الحق سبحانه عن أولئك الذين قُتلوا في سبيل اللَّه، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

فهؤلاء الذين قُتِلُوا في سبيل اللَّه ليسوا بميِّتين؛ لأن حياتهم حياة موصولة، إن هناك فارقاً كبيراً بين الموت والشهادة، فالذي يُقتَل شهيداً تكون حياته موصولة، ولن يمر بفترة موتنا نحن، ولنفهم أنهم أحياء عند ربهم، أي: بقانونه سبحانه، فلا تُحكِّم قانونك أنت، فأنت ـ كما قلت ـ لو فتحتَ القبر ستجد هؤلاء القَتْلى مجرد أشلاء، هم عندك أشلاء وأموات في قانونك أنت، لكنهم أحياء عند ربهم يُرزَقُون.

فالحياة تختلف عن الموت في ماذا؟

إن الإنسان إذا زهقت روحه وفارقت جسده انقطعت حياته، فهو في ظاهر الأمر انتهى ولم يَعُدْ ينتفع برزق ولا بأكل؛ لأن الرزق جُعِل لاستبقاء الحياة، وما دام الرزق قد صُنِع لاستبقاء الحياة، وليس فيه حياة. إذن: فلا رزقَ، لكن اللَّه سبحانه يريد أن يعطينا مواصفات تؤكد أن الشهيد حَيٌّ.

ومن ضروريات الحياة أنه يُرزَق، أي: ينتفع باستبقاء الحياة، وعلينا أن نفهم أن العِنْدية عندك غير العِنْدية عند اللَّه، فالشهيد حيٌّ عند ربه، ويُرزق عند ربه رزقاً يناسب الحياة التي أرادها له ربه، ونعلم أن الرزق هو الخاصية التي توجد للأحياء.

وعندما نقرأ قول اللَّه: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

قد يقول قائل: من الجائز أنك تأخذ إنساناً وتُبقيه حياً، وتعطيه طعاماً

وشراباً، لكن أهو فَرِحٌ بموقعه؟ لا. لذلك يجب أن ندرك ونعرف أن حياة الشهيد ليست في قبره، ولكنها عند ربه وهو فرِح بموقعه.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

والعدل يتحقق بين البشر بأن كُلاً منهم يموت، ولكن الفضل أن يُعجِّل اللَّه انقضاء الحياة في الدنيا لمن يحبهم بالاستشهاد، وينقلهم إلى رضوانه ونعيمه.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ . . .﴾ [آل عمران: ١٧٠].

وليس هذا فقط، بل إننا نجد الأُخوَّة الإيمانية قد بقيتْ فيهم وليست كخاصية الأحياء، بل أنْقى وأبْقى من خاصية الأحياء، فالخاصية الإيمانية تقتضي أن يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه.

والشهداء في حياتهم عند ربهم كذلك، مما يدلّ على أن الحياة التي يحياها الشهداء هي حياة نامية، فيها رزق ومواجيد وفرح، وكل شهيد يعتبر أن هذا فضلٌ من اللَّه قد فَضَّله به.

ولذلك، فالشهيد يستبشر بالذي لم يأت من بعده من إخوانه المؤمنين، ويقول: يا ليتهم يأتون ليروْا ما نراه.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم . . .﴾ [آل عمران: ١٧٠].

فالشهداء يقولون: إنهم سيأتون لنا، وما داموا سيأتون لنا فنحن نَحِنُّ أن يكونوا معنا في النعيم والخير الذي نحيا فيه، وكل منهم يشعر بالمحبة لأخيه؛ لأنه يعلم قول الرسول ﷺ: «**لا يكملُ إيمانُ أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبه لنفسه**»(١).

وعن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لما أصيب إخوانكم يوم أُحُد جعل اللَّه أرواحهم في أجواف طَيْر خُضْر، تَرِدُ أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش**».

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٣) كتاب الإيمان من حديث أنس رضي اللَّه عنه بلفظ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

فلما وجدوا طِيب مأكلهم ومَشْربهم وحُسْن فضلهم قالوا: ليت إخواننا يعلمون ما صنع اللَّه بِنَا لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا يَنكُلوا عن الحرب، فقال اللَّه عز وجل: أنا أُبلغهم عنكم[1] فأنزل اللَّه هذه الآيات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . . .﴾ [آل عمران: ١٦٩].

والحق سبحانه يقول:

﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

لقد رأى رسول اللَّه ﷺ الذين يقاتلون في سبيل اللَّه وعُرِض عليه منظرهم وهو في ليلة الإسراء والمعراج، رأى ﷺ جماعة يزرعون ويحصدون بعد البَذْر مباشرة؛ لأن الذي قُتِل في سبيل اللَّه إنما فعل ذلك إعلاءً لكلمة اللَّه، فلا ينتهي قطفه أبداً للخير الذي بذله، وحياة مستمرة في حياة الملايين.

والحق سبحانه يقول في آية أخرى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وكلمة (اشْتَرَى) تدل على أن هناك صفقة، عملية شراء وبيع، وإذا كان هذا مِلْكاً للَّه، فاللَّه هو المشتري، واللَّه هو البائع.

وما الثمن؟ يأتي التحديد من الحق: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ . . .﴾ [التوبة: ١١١].

هذا هو الثمن الذي لا يَفْنى ولا يَبْلَى، ونعيمك فيها على قَدْر إمكانيات اللَّه التي لا نهاية لها، أما نعيمك في حياتك فهو على قَدْرِ إمكانياتك أنت في أسباب اللَّه، وهكذا يكون الثمن غالياً.

وما دام سبحانه هو الذي اشترى فلا بُدَّ أن الثمن كبير؛ لأنه يعطي النعيم الذي ليس فيه أغيار، ففي الجنة لا تفوت النعمة مؤمناً، ولا هو يفوتها.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٢٦٦) وأبو داود في سننه (٢٥٢٠)، والحاكم في مستدركه (٢/ ٨٨، ٢٩٧) والبيقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٠٤) من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما.

وحينما جاء الأنصار في بيعة العقبة لرسول اللَّه ﷺ قال له عبد اللَّه بن رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. قال: «**أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم**». قالوا: فما لَنَا إذا فعلنا ذلك؟

ماذا قال رسول اللَّه؟ أقال لهم: ستفتحون قصور بُصرى[١] والشام وتصيرون ملوكاً، وينفتح لكم المشرق والمغرب؟

لم يقل ﷺ شيئاً من هذا، بل قال «**الجنة**»؛ لأن كل شيء في الدنيا تافه بالنسبة لهذا الثمن، قالوا: «**رَبح البيع، لا نقيلُ ولا نستقيل**»[٢].

وبمجرد عَقْد الصفقة العَهدية بين رسول اللَّه ﷺ وبين الأنصار[٣] كان من الممكن أنْ يموتَ واحد أو اثنان أو ثلاثة قبل أنْ يبلغ الإسلام حظّه وذِرْوته، وقد يُقال: فلان مات ولم يأخذ شيئاً من ماديات الحياة، لكنه ﷺ حين قال: «**الجنة**»، فمن مات يدخلها.

﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ . . .﴾ [التوبة: ١١١]، هذا هو الثمن، وهو وَعْد يأتي بشيء يأتي من بعد، ولكنه وَعْد مِمَّنْ يملك إنفاذه؛ لأن الذي يقدح في وعود الناس للناس، أنك قد تَعِدُ بشيء ولكن تظل حياتك ولا تفي به، أو أنْ تقِلّ إمكاناتك عن التنفيذ.

ونحن نعرف قصة الصحابي الذي قال لرسول اللَّه ﷺ: أليس بيني وبين الجنة إلا أنْ أُلْقَى هؤلاء فيقتلوني؟ قال له: نعم، فأخرج الصحابي تمرة كانت في فمه، ودخل إلى القتال، وكأنه يستعجل الجنة[٤].

---

(١) بُصْرى: قرية بالشام. (لسان العرب ـ مادة: بصر).

(٢) حينئذ نزلت هذه الآية، وقد أورد سبب نزول هذه الآية السيوطي في أسباب النزول (ص١٠١) طبعة دار الشعب، وعزاه لابن جرير الطبري من مرسل محمد بن كعب القرظي، وكذا أورده ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٩١) والقرطبي في تفسيره (٤/ ٣١٩٣).

(٣) كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من الأوس والخزرج منهم: سعد بن الربيع وعبد اللَّه بن رواحة وأبو مسعود الأنصاري والبراء بن معرور وسعد بن عبادة، والمرأتان هما: نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو.

(٤) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول اللَّه ﷺ يوم أُحد فقال له: أرأيت إن قُتلت فأين أنا؟ قال: في الجنة. فألقى تمرات في يده، ثم قاتل حتى قُتل. أخرجه البخاري في صحيحه (٤٠٤٦) ومسلم في صحيحه (١٨٩٩) من حديث جابر بن عبد اللَّه.

وما دام اللَّه قد اشترى من المؤمن نفسه فيجب على المؤمن ألَّا تُهمه نفسه، فيدخل المعركة بالصفقة الإيمانية، فإذا أهمَّتْه نفسه يبدأ بالقلق والبلبلة والاضطراب وتوهُّم الأشياء.

والحق سبحانه ساعة يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ . . . ﴾ [التوبة: ١١١]، تجد بشرة المؤمن تطفح بالسُّرور والبِشْر، ويحدث له تهلُّل وإشراق مع أنه هنا سيأخذ نفسه، ولكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة.

إذن: قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أن تصيبنا بالخوف، بل علينا أن نستقبلها بالاستبشار؛ ولذلك يقول الحق: ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ . . . ﴾ [التوبة: ١١١]، أي: فليظهر أثر ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً.

﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ . . . ﴾ [التوبة: ١١١]، وهل يستبشر الإنسان بالبيع؟ نعم؛ لأن الإنسان لا يبيع إلا ما يستغني عنه عادة، ويشتري ما يحتاج إليه، فهنا الاستبشار بالبيع وليس بالشراء، فالمؤمن هنا يبيع فانياً ببَاقٍ.

﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١]، والفوز هو بلوغ الغاية المأمولة في عُرْف العقل الواعي، فهناك «فوز»، وهناك «فوز عظيم»، والفوز في الدنيا أن يتمتع الإنسان بالصحة والمال وراحة البال. وهناك فوز أعظم من هذا، أن تضمن أن النعمة التي تفوز بها لا تفارقك، ولا أنت تفارقها، فيكون هذا هو الفوز الذي لا فَوْزَ أعظم منه.

والحق سبحانه يقول في آية أخرى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [التوبة: ٢٠].

فهؤلاء هم الذين يحصلون على أكبر الأجر عند اللَّه تعالى، وهم المؤمنون المهاجرون والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم، وما دام هؤلاء هم الفائزون فالفوز إنما يكون في مضمارين اثنين، فالذين يصنعون أموراً خاصة بالدنيا قد يفوزون فيها بدرجة من النعيم، ولكن نعيمهم على قَدْر إمكاناتهم، وهو نعيم غير دائم؛ لأنه إما أنْ يزول عنهم بذهاب النعمة، وإما أن يزولوا هم عنه بالموت. إذن: فهو نعيم ناقص.

أما الذي يؤمن ويهاجر ويجاهد ويعمل لآخرته، فسوف يفوز بنعيم لا على قَدْر إمكاناته، ولكن على قَدْر إمكانات اللَّه، ولا مقارنة بين إمكانات اللَّه وإمكانات خَلْقه، وفوق ذلك فهو نعيم دائم لا يتركك فيزول عنك، ولا تتركه؛ لأنك في الجنة خالد لا تموت.

ويقول تعالى أيضاً:

﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

فالحق سبحانه يُرغِّب المؤمنين في أن يكونوا مجاهدين، وأن يبذلوا الجهد لتكون كلمة اللَّه هي العليا، فإذا ما آمن الإنسان فليس له أن يتخلف عن الصَّفِّ الإيماني؛ لأنه ما دام قد نفع نفسه بالإيمان فلمَ لا ينضم إلى ركب مَنْ ينفع سواه بالإيمان؟

ويريد اللَّه أنْ يُعبِّيء كل مَنْ مسَّ الإيمانُ قلبَهُ، وحتى ولو كان موجوداً في مكان يسيطر عليه الكفار، فيدعوه لأن يتخلص من التفاف الكفار حوله، وليخرج منضماً إلى إخوته المؤمنين، وليشيع الإيمان لسواه، ويُعبِّر عملياً عن حبه للناس مما أحبه لنفسه.

هَؤُلاءِ يُحبهم اللَّهُ

٥٠ ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى إذَا أَحبَّ عَبْداً نَادَى جِبْريل: إنَّ اللَّهَ قَدْ أَحبَّ فُلَاناً فَأَحِبَّه. فَيُحبه جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادِي جِبْرِيلُ في السَّماءِ: إنَّ اللَّهَ قَدْ أَحبَّ فُلَاناً فَأَحِبُوهُ. فَيُحبُّه أَهْلُ السَّماءِ وَيُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ»[1].

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

أي: سيجعل لهم مودة ومحبة تقوم على الإيمان، وتقود إلى شدة التعلُّق، وقد جعل الحق سبحانه في كَوْنِه أسباباً لهذه المحبة والمودة، كأنْ ترى إنساناً يُحبك ويتودّد إليك، فساعةَ تراه مُقْبِلاً عليك تقوم له وتبشُّ في وجهه، وتفسح له في المجلس، ثم تسأل عنه إنْ غاب، وتعودُه إنْ مرض، وتشاركه الأفراح، وتواسيه في الأحزان، وتؤازره عند الشدائد، فهذه المودة ناشئة عن حُبٍّ ومودة سابقة.

وقد تنشأ المودة بسبب القرابة أو المصالح المتبادلة أو الصداقة، فهذه أسباب المودة في الدنيا بين الخَلْق جميعاً، مؤمنهم وكافرهم.

أما هنا: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

أي: بدون سبب من أسباب المودة هذه، مودة بدون قرابة، وبدون مصالح مشتركة أو صداقة، وهذه المودة بين الذين آمنوا، كأن ترى شخصاً لأول مرة فتشعر نحوه بارتياح كأنك تعرفه، وتقول له: إنِّي أحبك لله.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٥١٤) والبخاري في صحيحه (٣٢٠٩، ٦٠٤٠، ٧٤٨٥) ومسلم في صحيحه (٢٦٣٧) والترمذي في سننه (٥/ ٣١٦١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه محبة جعلها اللَّه بين المؤمنين، فَضْلاً منه سبحانه وتكرُّماً، لا بسبب من أسباب المودة المعروفة.

لذلك قال هرم بن حيان[١]: إن الحق تبارك وتعالى حين يرى عبده المؤمن قد أقبل عليه بقلبه وأسكنه فيه، وأبعد عن قلبه الأغيار، وسلَّم قلبه وهو أسمى ما يملك من مستودعات العقائد وينبوع الصالحات وقدَّمه لربه فتح له قلوب المؤمنين جميعاً[٢].

كما جاء في الحديث القدسي: «**ما أقبل عليّ عبد بقلبه إلا أقبلتُ عليه بقلوب المؤمنين جميعاً**»[٣]، أي: بالمودة والرحمة دون أسباب.

وكذلك الحديث الذي معنا: «**إن اللَّه إذا أحبَّ عبداً نادى في السماء: إنني أحببتُ فلاناً فأحِبُّوه، وينادي جبريلُ في الأرض: إن اللَّه أحبَّ فلاناً فأحبوه، ويُوضَع له القبول في الأرض**».

فيحبه كل مَنْ رآه عطيةً من اللَّه وفَضْلاً، دون سبب من أسباب المودة، وإنْ كنتَ قد تبرعتَ للَّه تعالى بما تملك وهو قلبك مستودع العقائد وينبوع الصالحات كلها، فإنه تعالى وهبَ لك ما يملك من قلوب الناس جميعاً، فهي في يده تعالى يُوجِّهها كيف يشاء.

والحق تبارك وتعالى من أسمائه «الودود».

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

والوُدُّ هو الحبُّ، والحبُّ يقتضي العطف على قَدْر حاجة المعطوف عليه.

---

(١) هو: هرم بن حيان العبدي، كان عاملاً لعمر بن الخطاب، مات في يوم شديد الحر، فلما نفضوا أيديهم عن قبره جاءت سحابة فأمطرت ونبت العشب من يومه.

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٦/ ٤٣٣٣): «كان هرم بن حيان يقول: ما أقبل أحد بقلبه على اللَّه تعالى إلا أقبل اللَّه تعالى بقلوب أهل الإيمان إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم».

(٣) أورد الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٤٧) عن أبي الدرداء رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم، فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى اللَّه ضيعته وجعل فقره بين عينيه.. وما أقبل عبد بقلبه إلى اللَّه إلا جعل اللَّه قلوب المؤمنين تفد إليه بالود والرحمة، وكان اللَّه بكل خير إليه أسرع» رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب وهو كذاب.

وللّه المثَل الأعلى: نرى الأم ولها ولدان: أولهما قادر ثري يأتي لها بما تريد، وثانيهما ضعيف فقير، فنجد قلب الأم ـ دائماً ـ مع هذا الضعيف الفقير، وتُحنّن قلب القوي القادر على الفقير الضعيف.

ونجد المرأة العربية القديمة تجيب على مَنْ سألها: أيّ أبنائك أحبّ إليك؟ فتقول: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يعود، والمريض حتى يشفى.

إذن: فالحبُّ يقتضي العطف على قَدْر الحاجة.

ويقول الحق سبحانه في الحديث القدسي:

«**يا بْنَ آدمَ، لا تخافَنَّ من ذِي سُلْطان، ما دام سُلْطاني باقياً، وسلطاني لا ينفد أبداً.**

يا بْنَ آدمَ، لا تخْشَ من ضيق رِزْقٍ، وخزائني ملآنة، وخزائني لا تنفدُ أبداً.

يا بْنَ آدمَ، خلقتُكَ للعبادةِ، فلا تلعبْ، وضمنتُ لك رزقكَ فلا تتعبْ، فوعزتي وجلالي إنْ رضيتَ بما قسمتُه لك أرَحْتُ قلبك وبدنك، وكنتَ عندي محموداً، وإنْ أنت لم تَرْضَ بما قسمتُه لك، فوعزَّتي وجلالي لأُسلّطن عليك الدنيا، تركض فيها رَكْضَ الوحوش في البرية، ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمتُه لك.

يا بْنَ آدمَ، خلقْتُ السماواتِ والأرضَ ولم أَعْيَ بخَلْقِهن، أَيُعييني رغيفُ عَيْشٍ أسوقُه لك؟

يا بْنَ آدمَ، لا تسألني رِزْقَ غَدٍ كما لم أطلُبْ منك عَمَل غَدٍ.

يا بْنَ آدمَ، أَنَا لَكَ مُحِبٌّ فَبِحقّي عليك كُنْ لِي مُحباً».

والحب هو مَيْل المحب إلى المحبوب، وذلك الأمر يكون بالنسبة للبشر، لكن بالنسبة للحق سبحانه هو تودُّد الخالق بالرحمة والكرامة على المخلوق.

فحبُّ اللّه لعبده يتوقف على أن يعرف العبد نعمته سبحانه في التكليف، أن اللّه يحب العبد الذي يعرف قيمة النعمة في التكليف.

ودليل صِدْق الحب هو قيام العبد بالتكليف، وما دُمْتَ أنت قد عبَّرت عن صِدْق عواطفك بحبك للّه، فلا بُدَّ أنْ يحبك اللّه، وكُلٌّ مِنَّا يعرف أن حُبَّه للّه لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر، لكن حُبَّ اللّه لك يُقدِّم ويُؤخِّر.

إنك قد تحب اللَّه، ولكن عليك أن تلاحظ الفرق بين أن تحب أنت اللَّه، وأنْ يحبك اللَّه، إن التكليف قد يبدو شاقاً عليك فتهمل التكليف؛ لذلك نقول لك: لا يكفي أن تحب اللَّه لنعمة إيجاده وإمداده؛ لأنك بذلك تكون أهملتَ نعمة تكليفه التي تعود عليك بالخير.

إن نعمة التكليف تعود عليك بكل الخير عندما تؤديها أيها الإنسان فلا تهملها.

وقد فصَّل لنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أصناف المؤمنين الذين يحبهم اللَّه.

اللَّه يحب المحسنين:

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يحب من عباده أن يكونوا على خُلقه، فكما أن اللَّه أحسن كل شيء خَلَقه يريد من عباده وقد تفضلَّ عليهم بالعقل المفكر فيخطط، وبالطاقات فتبرز التفكير إلى عمل، يريد الحق منَّا أن يكون رائدنا في كل عمل أنْ نحسنه، حتى نكون مُتخلِّقين بأخلاق اللَّه.

يقول الحق سبحانه: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

والإحسان كما علَّمنا رسول اللَّه ﷺ: «**أن تعبد اللَّه ـ أي تطيع أوامره ـ كأنك تراه، فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراك**»(١).

مشكلة الناس هذه الأيام أنهم يتشبهون بـ «**فإنه يراك**» فعملوا الدوائر التليفزيونية المغلقة في المحلات الكبرى حتى تتم مراقبة سير العمل في أرجاء المحل، هذا فعل البشر، لكن انظر إلى تسامي الإيمان، إنه يأمرك أنت أن ترى اللَّه، فلا تؤد العمل أداء شكلياً يرفع عنك العتبَ، بل عليك أن تؤدي العمل بقصد الإحسان في العمل(٢).

---

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠)، وكذا مسلم في صحيحه (٩) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه وهو حديث جبريل الذي قال عنه ﷺ في هذا الحديث: «هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم».

(٢) قال النووي: هذا القدر من الحديث أصل عظيم من أصول الدين وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصديقين وبغية السالكين وكنز العارفين ودأب الصالحين، وهو من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ، وقد ندب أهل التحقيق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك =

والإحسان في كل شيء هو إتقانه إتقاناً، بحيث يصنع الإنسان لغيره ما يحب أن يصنعه غيره له، ولو تعامل الناسُ على هذا الأساس لامتازتْ كل الصناعات، لكن إذا ساد الغِشّ فأنت تغشُّ غيرك، وغيرك يغشُّك، وبعد ذلك كلنا نجأر بالشكوى.

علينا إذن أنْ نُحسِن في كل شيء، مثلاً نُحسِن في الإنفاق، ولن نحسن في الإنفاق إلا إذا أحسنَّا في الكَدْح الذي يأتي بثمرة ما ننفق؛ لأن الكدح ثمرته مال، ولا إنفاقَ إلا بمال، فتخرج من عائد كدْحك لتصرِفَه في المناسب من الأمور.

ودائرة الإحسان لا تقتصر على الإنفاق فقط، فالأمر هنا عام، ولا تعتقد أنه أمر في زاوية من زوايا الدين جاءت لتخدم جزئية من جزئيات الحياة، إنما كل زاوية من زوايا الدين جاءت لتخدم كل جزئيات الحياة، فالإحسان إذا كان بالمال فهذا يقتضي أنْ يُحسن الإنسان الحركة في الأرض، ويعمل عملاً يكفيه ويكفي مَنْ يعول، ثم يفيض لديه ما يُحسِن به.

فوجوه الإحسان في الأشياء كثيرة، وكلها تخدم قضية الإيمان، وعندما يرى الكافر المؤمنين، وكل واحد منهم يُحسِن عمله، فإن ذلك يُغريه بالإيمان.

وإذا سألنا: ما الذي زَهَّد دنيانا المعاصرة في ديننا؟

فسوف نجد أن العالم ينظر إلى دين اللَّه من خلال حركة المسلمين، وهي حركة غير إسلامية في غالبيتها، صحيح أن بعضاً من عقلاء الغرب وفلاسفته لا يأخذون الدين من حركة المسلمين، وهذا منتهى العدالة منهم؛ لأنه ربما كان بعض المسلمين غَيْرَ ملتزم بدينه، فلا يأخذ أحدٌ الإسلام منه لمجرد أنه مسلم.

وأتباع الديانات الأخرى يعرفون أن هناك أفعالاً جرَّمها دينهم، وما دام هناك أفعال جرَّمها الدين وسَنَّ لها عقوبة، فذلك دليل على أنها قد تقع، فأنت عندما ترى شخصاً ينتسب إلى الإسلام ويسرق، هل تقول: إن المسلمين

= مانعاً من التلبس بشيء من النقائص احتراماً لهم واستحياء منهم، فكيف بمن لا يزال اللَّه مطلعاً عليه في سره وعلانيته؟ نقله ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (١/ ١٢٠).

لصوص. لا، إن عليك أن تنظر إلى تشريعات الإسلام، هل جرَّمت السارق أو لم تجرمه؟

فلا يقولن أحد: انظر إلى حال المسلمين، ولكن لننظر إلى قوانين الإسلام؛ لأن اللَّه قدَّر على البشر أن يقوموا بالأفعال حَسنها وسيئها؛ ولذلك أثاب على العمل الصالح وعاقب على العمل السيِّئ.

والعقلاء والمفكرون يأخذون الدين من مبادىء الدين نفسه، ولا يأخذونه من سلوك الناس، فقد يجوز أن تقع عَيْن المراقب على مُخالف في مسألة يُحرِّمها الدين، فلا تأخذ الفعلَ الخاطىء على أنه الإسلام، وإنما خُذْه على أنه خارج على الإسلام.

وساعةَ يرانا العالم محسنين في كل شيء فنحن نعطيهم الأسوة التي كان عليها أجدادنا، وجعلتْ الإسلام يمتدّ ذلك المدّ الخرافي الأسطوري حتى وصل في نصف قرن إلى آخر الدنيا في الشرق، وإلى آخرها في الغرب، وبعد ذلك ينحسر سياسياً عن الأرض، ولكن يظل كدين، وبقي من الإسلام هذا النظام الذي يجذب له الناس.

إن الإسلام له مناعة في خميرته الذاتية، إنه يحمل مقومات بقائه وصلاحيته، وهو الذي يجذب غير المسلمين له فيؤمنون به، وليس المسلمون هم الذين يجذبون الناس للإسلام.

ولذلك أقول: لو أن التمثيل السياسي للأمم الإسلامية في البلاد غير الإسلامية المتحضرة قد أخذ بمبادىء الإسلام لكان أسْوة حسنة.

إذن: الإحسان من المسلمين أكبر دعاية ودعوة إلى دين الإسلام.

ولو علم الذين لا يُحسِنون أعمالهم، بماذا يحرمون الوجود لتحسَّروا على أنفسهم، ولَيْتَهم يحرمون الوجود من كلمة «اللَّه»، ولكنهم يجعلون مكان «اللَّه» كلمة خبيثة، فيشيعون القُبْح في الوجود، وحين يشيع القبح في الوجود يكون الإنسانُ في عمومه هو الخاسر.

ويعطينا الحق سبحانه جانباً آخر من الإحسان، فيقول:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يبيح أن ترد الاعتداء بالمثل، ثم يُفسِح المجال لنكظم الغيظ فلا نعتدي، ولكن يظل السبب في القلب، ثم يرتقي بنا مرحلة أخرى إلى العفو وأن نُخرج المسألة من قلوبنا، ثم يترقى ارتقاءً آخر، فيقول سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ومَنْ فينا غير راغب في حب اللَّه؟

وعملية الإحسان مع المسيء أو المعتدي: أهي عملية منطقية مع النفس الإنسانية؟ قد تكون غير منطقية مع النفس الإنسانية، ولكنك أيها الإنسان لا تُشرِّع لنفسك، إنما الذي يُشَرّع لك هو الأعلى من النفس الإنسانية.

والخالق يقول: لو علمتَ ما قدمه لك مَنْ أساء إليك لأحسنتَ إليه؛ لأنك إنْ أسأتَ إلى خَلْق من خَلْق اللَّه، فالذي يثأر، ويأخذ الحق لمن أُسِيء إليه هو رَبُّ هذا المخلوق، ويأتي اللَّه في صَفِّ الذي تحمَّل الإساءة.

إذن: فإساءةُ العدو لك جعلَت اللَّهَ في صَفِّك وفي جانبك، أَلَا يستحق ذلك المسيء أنْ تشكره؟ أَلَا تقول لنفسك القول المأثور: أَلَا تُحسِن إلى مَنْ جعل اللَّه في جانبك.

والإحسان أن تفعل شيئاً فوق ما افترضه اللَّه، ولكن من جنس ما افترضه اللَّه، والمحسِن الذي يدخل في مقام الإحسان هو مَنْ يعبد اللَّه كأنه يراه، فإنْ لم يكن يراه فهو ـ سبحانه وتعالى ـ يرى كل خَلْقه.

ونحن نعرف قَوْل الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٥، ١٦].

ما الذي جاء بالإحسان هنا؟

وتكون الإجابة: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾[1] [الذاريات: ١٧].

وهل يُكلِّف اللَّه خَلْقه أَلَّا يهجعوا إلا قليلاً من الليل؟ لا، فقد كلَّف اللَّه المسلمَ بالصلاة، وأعلمه بأنه حُرٌّ بعد صلاة العشاء، وله الحق أن ينام إلى

(١) الهجوع: النوم ليلاً. (القاموس القويم ٢/ ٢٩٨).

الفجر، فإنْ سَمِع أذان الفجر فليقُمْ إلى صلاة الفجر، لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه، فيزيد من صلواته في الليل.

ويضيف الحق سبحانه مُذكِّراً لنا بصفات المحسنين:

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٨].

أكلَّف اللَّه الخَلْق بأنْ يستغفروا بالأسحار؟ لا، بل إن الرسول يجيب على رجل سأله عن الفروض الأساسية المطلوبة منه، فذكر له أركان الإسلام، ومن بينها الصلوات الخمس المكتوبة، فقال الرجل: واللَّه لا أزيدُ على هذا ولا أنقص، فقال الرسول ﷺ: «**أفلح إن صدق**»(١).

ويضيف الحق سبحانه في استكمال صفات المحسنين:

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٩].

ونلحظ أن الحق هنا لم يَقُلْ: «حَقٌّ معلوم» إنما قال: «حَقٌّ للسائل والمحروم» فالحقُّ المعلوم هو الزكاة، أما المحسن فللسائل والمحروم في ماله حَقٌّ غَيْر معلوم، وذلك ليُفْسِح سبحانه المجال للطموحات الإيمانية، فمَنْ يزِدْ في العطاء فله رصيد عند اللَّه.

فالإحسان كما نعلم له وجهان:

الوجه الأول: أن يعبد المؤمن اللَّهَ كأنه يراه، وكلما جاء تكليف يُحسِن المؤمن في أدائه، كأنه يرى اللَّه، وإنْ لم يكن يراه فإنه يُحِسُّ أنه سبحانه يراه، وإذا ما استوعب المسلم كُلَّ أحكام اللَّه التي استوعبتْ بدورها كُلَّ أقضية الحياة، فهو يُحسن أداء هذه الأحكام.

---

(١) عن طلحة بن عبيد اللَّه قال: جاء رجل إلى رسول اللَّه ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا من رسول اللَّه ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول اللَّه ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة». فقال: هل عليَّ غيرهن؟ قال: «لا، إلا أن تطوع، وصيام شهر رمضان»، فقال: هل عليّ غيره؟ فقال: «لا، إلا أن تطوع»، وذكر له رسول اللَّه ﷺ الزكاة فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع». قال: فأدبر الرجل وهو يقول: واللَّه لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال رسول اللَّه ﷺ: «أفلح إن صدق». أخرجه مسلم في صحيحه (١١) كتاب الإيمان، والبخاري في صحيحه (٤٦، ١٨٩١).

الوجه الثاني: أن يزيد المؤمن في أداء هذه التكاليف فوق ما فرض اللَّه، وهي النوافل، وبذلك لا يكتفي المؤمن بتصديق الأحكام التي نزلت، بل يزيد من جنسها.

إذن: فالمحسن هو من عشق التكليف من اللَّه وعرف منزلة القرب من اللَّه، فوجد أن اللَّه قد كلَّفه دون ما يستحق سبحانه مِنّا، فزاد من العمل الذي يزيده قُرْباً من اللَّه.

اللَّه يحب التوابين:

اللَّه يحب التوبة من عباده، وهو سبحانه أفرَحُ بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره، وقد أضلَّه في فلاة؛ لأن المعصية عندما تأخذ الإنسان من منهج اللَّه لتعطيه نَفْعاً عاجلاً، فإن حلاوة الإيمان ـ إنْ كان مؤمناً ـ ستجذبه مرة أخرى إلى الإيمان بعيداً عن المعاصي.

إن الإنسان حين يُذنِب ذنْباً ينفلت من قضية الإيمان، ولو لم تشرع التوبة والعفو من اللَّه لَزادَ الناس في معاصيهم وغَرقوا فيها؛ لأنه إذا لم تكُنْ هناك توبة، وكان الذنب الواحد يُؤدِّي إلى النار، والعقاب سينال الإنسانَ فإنه يتمادى في المعصية، وهذا ما لا يريده اللَّه سبحانه وتعالى لعباده.

وفي حديث رسول اللَّه ﷺ:

«للَّه أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة»[1].

معنى حديث رسول اللَّه ﷺ: رجل معه بعير يحمل ماله وطعامه وشرابه وكل ما يملكه، هذا البعير ضَلَّ في صحراء جرداء، بحث عنه صاحبه فلم يجده، لقد فقده وفقد معه كل مُقوِّمات حياته، ثم ينظر فيراه أمامه، كيف تكون فرحته؟ طبعاً ستكون فرحته بلا حدودٍ. هكذا تكون فَرْحة اللَّه تعالى بتوبة عبده المؤمن، بل أشدّ من ذلك.

وقد قال الحق سبحانه في الحديث القدسي:

«يَابْنَ آدمَ، إنك ما دعوْتَني ورجَوْتَني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أُبالي.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٠٩) عن عبد اللَّه بن مسعود، وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٤٧) عن أنس بن مالك.

يَابْن آدم، لَوْ بلغَتْ ذُنُوبُك عَنانَ السَّماءِ ثُمّ اسْتغْفرتَني غَفرتُ لَكَ ولَا أُبَالِي.

يابْنَ آدمَ، إنك لو أتيتَني بقُراب الأرض خَطَايا ثم لَقِيتَني لا تُشرك بي شيئاً لأتيتُكَ بقُرابِها مَغْفرةً»(١).

والتوبة رحمة من الخالق سبحانه ينعم بها على مَنْ يشاء من عباده، هذه الرحمة قريبة من المحسنين، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ولكن، مَن الذي يُحدِّد قُرْب الرحمة منه؟

إنه الإنسان، فإذا أحسن قرُبَتْ منه الرحمة، والزمام في يد الإنسان؛ لأن اللَّه لا يفتئِتُ ولا يستبدّ بأحد، فإنْ كنتَ تريد أن تقرب منك رحمة اللَّه فعليكَ بالإحسَان.

ولذلك قُلْنَا: إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: «**لا أملّ حتى تملوا**».

وأنت تدخل بيوت اللَّه تصلي في أي وقت، وتقف في أي مكان لتؤدي الصلاة. إذن: فاستحضارك أمام ربك في يدك أنت، وسبحانه حدد لك خمسة أوقات، ولكن بقية الأوقات كلها في يدك، وتستطيع أن تقف بين يدي اللَّه في أي لحظة وتتوب إليه وتستغفره.

وسبحانه يقول: «**ومَنْ جاءني يمشي أتيته هَرْولة**».

وهو جَلَّ وعلا يوضح لك: استرح أنت وسآتي لك أنا؛ لأن الجري قد يُتعبك، لكني لا يعتريني تَعَبٌ ولا عِيٌّ ولا عجز، وكأن الحق لا يطلب من العبد إلا أنْ يملك شعوراً بأنه يريد لقاء ربه.

إذن: فالمسألة كلها في يدك.

اللَّه يحب المتقين:

يقول الحق سبحانه:

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ٧٦].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٥٤) والترمذي في سننه (٣٥٤٠) والدارمي في سننه (٢/ ٣٢٢) من حديث أبي ذر الغفاري رضي اللَّه عنه.

قد يفهم البعض هذا القول بأن مَنْ أوفى بعهده الإيماني واتقى اللَّه في أنْ يجعل كُلَّ حركاته مطابقة لـ «افعل» و«لا تفعل» فإن اللَّه يحبه، هذا هو المعنى الذي قد يُفهم للوَهْلة الأولى، لكن اللَّه لم يقُلْ ذلك. إن الحب لا يرجع إلى الذات، بل يرجع إلى العمل.

لقد قال الحق سبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

إن الإنسان قد يخطئ ويقول: «**لقد أحبني اللَّه، وسأفعل من بعد ذلك، ما يحلو لي**»، ونحن نُذكِّر صاحب هذا القول بأن اللَّه يحب العمل الصالح الذي يؤديه العبد بِنيَّة خالصة للَّه، وليس للذات أيُّ قيمة.

لذلك قال:

﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

إن الذي أوفى بعهده واتقى سيحب اللَّه فيه التقوى، وإياك أنْ تفهمَ أن الحب من اللَّه للعبد سيصبح حُباً ذاتياً، لكنه حُبٌّ لوجود الوصف فيه، فاحرص على أن يكون الوصف لك دائماً، لتظل في محبوبية اللَّه.

والمتقون هم الذين يجعلون بينهم وبين أيِّ شيء يُغضب اللَّه وقايةً، وإن تعجَّب بعض الناس من قوْل الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤]، فإننا نقول: إن معنى «اتقوا اللَّه» أي: اجعلوا بينكم وبين صفات الجبروت للَّه وقاية، اتقوا صفات الجبروت في اللَّه حتى لا يصيبكم عذابه، فللَّه صفاتُ جلال منها: المنتقم والجبار. والقهّار، وله صفات جمال مثل: الرحيم والوهّاب والرزّاق والفتّاح.

إذن: اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال في اللَّه وقايةً لكم، وحمايةً من أنْ تتعرَّضوا لغضب اللَّه تعالى، والإنسان يتقي صفات الجلال في اللَّه بأن يتبع منهجه ويُطيعه في كل ما أمر به؛ لينال من فَيْض صفات الجمال.

وقوْل الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤]، أي: اجعلوا بينكم وبين النار وقاية حتى لا تمسّكم النار.

والمتقي هو الطائع للَّه فيما أمر وفيما نهى، ويجعل بينه وبين صفات الجلال من اللَّه وقاية.

اللَّه يحب الصابرين:

الصبر هو مَنْع النفس من الجزع من أيِّ شيء يحدث وهو يأخذ ألواناً شتى حَسْب تسامي الناس في العبادة، فمثلاً سُئِلَ الإمام علي رضي اللَّه عنه عن حَقِّ الجار؟ قال: تعلمون أنك لا تؤذيه؟ قالوا: نعم، قال: وأن تصبر على أذاه.. فكأنه ليس مطلوباً منك فقط ألَّا تؤذي جارك، بل وتصبر على أذاه.. والصبر هو الذي يعينك على أن تفعل ما أمرك اللَّه به، ولا تفعل ما نهاك اللَّه عنه.

إن اللَّه منعك من أشياء هي من شهوات النفس، وأمرك بأشياء فيها مشقة، وهذه محتاجة إلى الصبر، وأنت إنْ أخذتَ منهج اللَّه تعبُّداً ستأخذه فيما بعد عادة.

يقول أحد الصالحين في دعائه: اللهم إني أسألك ألَّا تكلني إلى نفسي، فإني أخشى يا رب ألَّا تثيبني على الطاعة؛ لأنني أصبحت أشتهيها.

فسبحانك أمرتنا أن نحارب شهواتنا.. انظر إلى الطاعة من كثرة حُبِّ اللَّه أصبحت مرغوبة مُحبَّبة إلى النفس.

والحق سبحانه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

أي: أنه يطلب منك أن تواجه الحياة في معية اللَّه، فأنت لو واجهتَ المشكلات في معيَّة مَنْ تثق في قوته تواجه الأمور بشجاعة، فما بالك إذا كنت في معية اللَّه، وكل شيء في الوجود خاضع للَّه، أيجرؤ شيء أن يقف أمامك وأنت مع اللَّه؟

إن الأحداث لا تملأ الخَلْق بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من حضانة ربهم، وأما مَنْ يعيش في حضانة ربه فلا يجرؤ عليه الشيطان، فالشيطان خنَّاس، فإذا سهوْتَ عن اللَّه اجترأ عليك، وإذا ذكرتَ اللَّه خنسَ وضَعُفَ، فهو لا قوةَ له، وهو لا يدخل مع اللَّه سبحانه وتعالى في معركة، وإنما يدخل مع خَلْق اللَّه الذين ينسَونَ اللَّه ويبتعدون عنه.

وما دام اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ مع الصابرين فلا بُدَّ أن نعشق الصبر، وكيف لا نعشق ما يجعل اللَّه معنا؟

يقول الحق ـ جَلَّ جلاله ـ في الحديث القدسي:

«يابْنَ آدم، مرضتَ فلم تَعُدْني. قال: يا ربّ وكيف أعودك وأنت رَبُّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تَعُدْهُ؟ أما علمتَ أنه لو عُدْتَهُ لوجدتني عنده»(١).

يقول بعض الصالحين: اللهم إني أستحي أنْ أسألك الشفاء والعافية حتى لا يكون ذلك زُهْداً في معيتي لك. إذن: لا بُدَّ أنْ نعشق الصبر؛ لأنه يجعلنا دائماً في معية اللَّه.

ويقول الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وما دام سبحانه يقول: اصبروا، فلا بُدَّ أن يكون هذا إيذاناً بأن فيه مشقةً، فالإيمان يؤدي إلى الجنة، والجنة محفوفة بالمكاره، لذلك لا بُدّ أنْ تكون فيه مشقات.

وإذا نظرت إلى تلك المشقات تجدها في ذات النفس منفصلة عن المجتمع تارة، وتجدها في ذات النفس مع المجتمع تارة أخرى، أما في ذات النفس مفصولةً عن المجتمع فإن الصبر يقتضي أنْ تصبر على تنفيذ أمر اللَّه في فِعْل الطاعات، وعلى تحمُّل الألم منه في تَرْك المعاصي، وإنْ كان ذلك يمنعك عن لذة شهوة تحبها، فإنك تصبر عن تلك الشهوة التي تُلِحّ عليك.

فمجاهدة المؤمن أنْ يصبر عن الشهوات التي نهى اللَّه عنها، والأشياء التي تصيب الإنسان يصبر عليها، فالمصيبة في النفس يصبر عليها، والأشياء التي يصبر عنها من النواهي هي الشهوات والمتع التي يُحرّمها اللَّه.

وكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: إنني خلقتُك، وأعلم منازعة نفسك إلى الشهوة؛ لأنك تحبها فاصبر عنها، والأمور التي في الطاعة إنْ فعلتها ستُورِثك مشقةً في ذاتك، اصبر عليها.

إذن: ففي الأوامر صَبْر على تنفيذها، وفي المناهي صَبْر عن إيقاعها، هذه كلها في الذات، أما إذا تعدَّتْ المسألة من الذاتية إلى المحيط الخارجي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

فالحق سبحانه يقول: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

اللَّه يحب المتوكلين:

إياك أن تظن أن التوكل يعني أن تترك الجوارح بلا عمل، فهذا هو التواكل أو الكسل، إنه التوكُّل الكاذب، والدليل على كذب مَنْ يقول ذلك أنه يحب أنْ يتوكّل فيما فيه مشقة، والسهل لا يُتوكّل فيه.

ونقول للرجل الذي يدَّعي أنه يتوكّل ولا يعمل: أنت لستَ مُتوكّلاً، ولو كنتَ صادقاً في التوكل إياك أن تمدَّ يدك إلى لُقْمة وتضعها في فمك، كُنْ مُتوكِّلاً كما تدعي، ودَعِ التوكلَ يضع لك اللقمة في فمك، واترك التوكل ليمضغها لك.

وطبعاً لن يفعل ذلك، ولهذا نقول له أيضاً: إن ادعاءك التوكل هو بلادةُ حِسٍّ إيماني، وليس توكلاً.

والتوكل يقتضي إظهار عجز، فمعنى أني أتوكل على اللَّه أنني استنفدت أسبابي؛ ولذلك أرجع إلى مَنْ عنده قدرة وليس عنده عجز، وهذا هو التوكل المطلق.

فالتوكل معناه: تسليمك زمام أمورك إلى الحق، ثقةً بحُسْن تدبيره، ومن تدبيره أنْ أعطاك الأسباب فلا تردّ يد اللَّه الممدودة بالأسباب، والذي لا يتوكل على اللَّه عليه أنْ يراجع إيمانه.

والحق سبحانه يقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

أي: أنهم يَكلُون أمورهم على مَنْ ائتمنوه على مصالحهم، وهو الحق ـ سبحانه وتعالى ـ القادر العظيم الذي خلق الكون، وخلق فيه أسباباً تؤدي إلى مُسبِّبات الأسباب مقدمة، والمسببات هي النتيجة، وبعد ذلك ترك أموراً ليس فيها أسباب، إلا أن نلحظ دائماً المسبب وهو اللَّه تعالى، فكل أمر يعزّ عليك في أسبابه، إياك أن تيأس من أنه لا يحدث.

بل قُلْ: تلك هي قضية الأسباب، أما أنا فلي رَبٌّ خلق الأسباب، وهو القادر فوق كل الأسباب.

اللَّه يحب المقسطين:

إن اللَّه يحب الذين يزيلون الجوْر، وما دام الحكم بالعدل يأتي ليزيل الجور، فكأنه كان من قبل جَوْراً مقنناً. إذن: فأقسط أي أزال جَوْراً مُقنّناً، وأعاد توازن الميزان ليعود الانسجام بين الإنسان والكون، والكون كله يسير بميزان، الأرض تدور، والشمس تؤدي مهمتها، ولا كوكب يصطدم بكوكب آخر.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

فإنْ أردتُمْ أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية، فانظروا إلى الأمور الإجبارية التي حولكم، فإنْ كانت بنظام وميزان واعتدلتْ الأمر. اعدلوا ـ إذن ـ في إدارة شؤونكم حتى تنسجموا كما انسجم الكون.

ولذلك نقرأ قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٥ ـ ٨].

أمامكم الموازين العُلْيا في الكون ولا تستطيعون إفسادها؛ لأنها تسير بنظام لا دَخْلَ لكم به؛ لذلك عليكم أنْ تتعلّموا منها، وأن تدبروا أمور حياتكم بميزان حتى تستقيم أموركم الاختيارية.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩].

فإنْ رأيتَ حولك كَوْناً غير مضطرب وغير متصادم، ويؤدي حركته دون تعارض أو تصادم، فافهم أنه قائم على ميزان الحق، ووضع سبحانه لك ميزاناً في الأمور الاختيارية والمرجحات الاختيارية هي أحكام التكليف من اللَّه، فإنْ أردتَ أنْ تستقيم لك الأمور الاختيارية فسِرْ بها على الميزان الذي وضعه اللَّه.

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

أي: أن اللَّه يحب الذين إنْ رأَوْا ظُلْماً أزالوه، وأحلُّوا محلَّه العدل. والحق سبحانه يقول: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وهذه ليست خاصة للحاكم فقط، بل إن كل إنسان مطالب بالعدل، فلو كنتَ مُحكّماً من طرف قوم ورضُوا بك أن تحكم، فاحكُمْ بالعدل حتى ولو كان الحكم في الأمور التي يتعلق بها التكريم والشرف والموهبة، فليس ضرورياً أنْ يكونَ الحكم بالعدل في أمر له قيمة مادية.

فسيدنا علي ـ رضوان اللَّه عليه وكرَّمَ اللَّه وجهه ـ يرى غلامين يتحاكمان إلى ابنه الحسن، ليحكم بينهما: أي الخطين أجمل من الآخر؟

وهذه مسألة قد ينظر لها الناس على أنها مسألة تافهة، لكنها ما دامتْ شغلتْ الطفلين، وأراد كل واحد منهما أن يكون خطُّه أجمل، فلا بُدَّ أن يكون الحكم بالعدل، فقال الإمام علي لابنه الحسن: يا بني، انظر كيف تقضي، فإن هذا حُكْم، واللَّه سائلك عنه يوم القيامة.

إن هذا يعطينا صورة في دقة العدل، حتى ولو كان الأمر صغيراً.

قال العلماء: إذا عَلِم المجتمع أن عَدْلاً يحرس حقوق الناس عند الناس فلن يُجرّئ ذلك ظالماً على أنْ يظلم بعد ذلك، فيقول الظالم: فلان ظلم ولم يُحاكم، فيغري ذلك الظالم أن يزيد في ظُلْمه، لكن ساعة يرى الناس أحداً يأخذ حَقَّ غيره، ثم جاء الحاكم فَرَدَعَهُ، ورَدَّ الحق لصاحبه فلن يظلم أحدٌ أحداً.

فقوْلُ الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

لا بُدَّ أن نأخذه على أنه مطلب تكليفي من اللَّه للمسلمين حتى يشيع في كل الناس، ولا يخصّ المؤمنين، يتعاملون به فيما بينهم، وإنما يشمل أيضاً ما بين المؤمنين والكافرين، وما بين الكافرين بعضهم مع بعض إنِ ارتضَوْا حُكْمَ رسول اللَّه.